**موقف السكاكي من الشاهد القرآني**

**في كتابه مفتاح العلوم**

بحثٌ مُقدَّمٌ للمؤتمر القرآني الدولي الرابع ( مقدس ) والذي سيعقد في جامعة ملايا في العاصمة الماليزية

قدَّمه

**الدكتور / سعد بن عبدالعزيز الدُّريهم**

الأستاذ المشارك بكلية الملك خالد العسكرية

بالحرس الوطني

14345 هـ **ــ** 2014 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة ، والسَّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ؛ نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : إنه من يتأمل في البلاغة العربية من خلال تأريخها سيجد أن نُقلتها من الجانب الأدبيِّ الذي يستند على النظم إلى الجانب التقعيدي التعليمي ؛ كان على يد العلاَّمة أبي يعقوب السكاكيِّ ـ رحمه الله ـ ، وذلك من خلال القسم الثالث من كتابه القيم الجامع الشامل ( مفتاح العلوم ) ، ومن يتقدم قليلاً في هذا المسار وهو النظر في تأريخ البلاغة سيلحظ أن هذه الشخصية التي كان لها قدم السَّبق في التنظير البلاغي التعليمي ، قد نالت من النقد ما لم ينله غيرها ، حيثُ قُوبِلَت بهجوم من أرباب الفن البلاغيِّ كاد يقلب إحسانه إساءة ، وكاد يُطِيح بهذا السبق الذي حققه . فبلاغة السكاكي عند أولئك النَقَدَةِ حوَّلت البلاغة من السلاسة إلى التعقيد ، وجعلتها في قوالب تشبه الصم الصِّلاَب ، وكادت تعصف بالجمال الذي حياه الله هذه اللغة في سلسلة من التهم لا زالت تلاك .

ولو تأملنا وأنصفنا بلاغة السكاكيِّ رحمه الله التقعيدية ؛ لوجدناها حسنة قُدِّمت للبلاغة العربية ، وخطوةً أدت إلى تماسكها وأعطتها قوة تدفع بها لأواء السنين وشدتها ، وهي من مقتضيات الزمن ولكل زمن مايناسبه ، فعندما كانت النفوس ذات قوة على النظر والغوص على وجوه الإعجاز كانت طريقة عبدالقاهر ومَنْ تقدَّمه هي الخير ، ولكن عندما ضَعُفَت كان التقعيد هو خير الوسائل لإدراك بلاغة القرآن وموروث العرب .

ومهما يكن من شيء فإن السكاكيَّ رحمه الله لم يخرج عن مشكاة عبدالقاهر لا في قواعده أو شواهده المختلفة بل زاد عليها ، بل هو يمتح من معينه ثراً ليقدمه للناس سهلاً رائقاً ، ولا عجب ، فالسَّكَّاكِيُّ ومن خلال تعامله مع الفنون البلاغة وهو أبوبجدتها تقعيداً تلحظ منه هضماً للمادة البلاغية التي قررها عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ ؛ لذا صرَّفها على الأقسام البلاغية والأبواب لا يكاد يند عنه شيءٌ منها ، حتى أولئك الذين افتاتوا عليه ؛ فابتدعوا أبواباً أخرى عند التدقيق تلحظ أنهم لم يأتوا بجديد ، لكنها الرغبة في التقسيم والإطالة وهو مما ابتليت به البلاغة العربية .

ومما يدل على أنَّ السكاكيَّ احتذى مسلك عبدالقاهر في التركيز على قضية الإعجاز تلك الآيات التي استشهد بها السكاكي في المفتاح ، وكلها بسبب من عبدالقاهر، وعليها بنى قواعده البلاغية ووقف مع كثير منها ، وفي بحثنا هذا المقدم لهذه المؤتمر سنقف مع الشواهد القرآنية التي هي أس تلك القضية ، والله أسأل أن يلهمني الصواب ؛ إنه جواد كريم .

 دكتور

 سعد بن عبدالعزيز الدريهم

 الرياض

**الحديث عن السكاكي وكتابه :**

لا يختلف اثنان على أنَّ السكاكيَّ ـ رحمه الله ـ من المؤثرين في الحقل اللغوي والبلاغي منه خاصة ، ومن مظاهر هذا التأثير تلك النقلة التي أحدثها في الحقل البلاغيِّ ، حيث نقلها من الطور الأدبي ممن تقدمه إلى الطور التقعيدي ، والأجيال التي تلته مدينة له بهذا السبق .

الكثير يتردد عنده المسمى ( السكاكي ) ، ولكنه ليس على علم بما وراءة من اسم ولقب بله النشأة والسيرة ، ومن التمهيد المستحب الإشارة ولو بأسطر لحياة هذا العلم الكبير وكتابه محل الدراسة ، وهو كما في كتب التراجم : أبو يعقوبَ يوسفُ بن أبي بكر محمد بن علي السكاكيُّ ، ولد في خوارزم ثالث جمادى الأولى سنة : 555 هـ ، في عهد أيل أرسلان بن آتز ومن مسماه يَظْهَرُ أنَّ أسرته كانت تحترف صناعة المعادن وسكِّها ، ومن ثم شَاعَ لها لقب (السكاكي) ، وكانت تُعنى بصنع السكة ، وهي حديدة منقوشة تُضْرَب بها الدراهم  ، وكل من تَرْجَمَ له يذكر أنَّه ظل على هذه الحِرفة حتى نهاية العقد الثالث من حياته ؛ حتى قُذِفَ في قلبه حُبُّ العلم والتفرغ له ، وإذا هو يُقْبِلُ عليه حفظاً ودرساً ، وقد ساعده تلك البيئة العلمية التي عاش في كنفها [[1]](#footnote-1)(1).

**شيوخه ومؤلفاته :**

ذَكَرَتْ كتبُ التراجُم أنه تتلمذ على عدد من الشيوخ منهم : سديد الدين الخياطي ، وابن صاعد الحارثي ، ومحمد بن عبد الكريم التركستاني ، وهم جميعا من فقهاء المذهب الحنفي . وأشاد في مباحثه البلاغية بأستاذه الحاتمي ، وله مصنفات مختلفة ، أهمها ( المفتاح ) ، ويظهر أنه كان مشتهراً في عصره شهرة واسعة ، حتى إنَّ ياقوتَ الحموي ليقول عنه : فقيه متكلم متفنن في علوم شتى[[2]](#footnote-2)(2)، وهو أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الرُّكبان ، وقد توفي رحمه الله بخوارزم سنة ست وعشرين وستمائة ، وقيل : سبع وعشرين وستمائة للهجرة رحمه الله رحمة واسعة [[3]](#footnote-3)(3).

**أثر السكاكيِّ في البلاغة العربية :**

لا يخفى على من له أدنى معرفة أن أبا يعقوب كان رجلا وافر العقل ، حاد الذهن ، واسع الثقافة ، مشاركاً في علوم كثيرة ، وقد كانت المباحث البلاغية تُدرَّس قبله ، على هامش العلوم الأخرى مسائل متفرقة ، ويختلف ترتيب هذه المسائل من كتاب لآخر قبل أن تمتد نحوها يد التنظم والتنسق ، وهذا ظاهر فيما كتبه الإمام عبد القاهر ، وفيما نثره الزمخشري في الكشاف ، نعم كان هناك إحساس بأواصر قوية بين الفنون المتصلة بدراسة الصورة البيانية ، فكان يجمع التشبيه مع المجاز والكناية في نظام واحد إلا أن هذا كان إحساساً غائماً ، وقد يتخلف فتختلط المسائل كما هو الحال في كتاب دلائل الإعجاز.

وكان ذكر الزمخشري لعلمي المعاني والبيان ، إشارة بينة إلى تمييز هذه المسائل وتصنيفها في هذين العلمين ، وإن كان ذلك لم يتم على يديه ، وكان من الخير كما يرى السكاكيُّ ، أن تضبط مسائل هذين العلمين وأن تحدد تحديدا بيناً ، وأن تميَّز تمييزاً كاشفاًٍ ، فكان هو أول من فعل ذلك فحدد أبواب ( علم المعاني ) ، وحصرها ، وحدد أبواب ( علم البيان ) ، وحصرها فأتم بذلك ما بدأ به الزمخشري .

 **منهجه في كتابه مفتاح العلوم :**

لقد قسَّم السَّكَّاكِيُّ كتابه ثلاثة أقسام ، تحدث في القسم الأول منها عن علم الصَّرف ، وما يتصل ، وجعل القسم الثاني لعلم النحو .

أما القسم الثالث فخصَّ به علم المعاني وعلم البيان ، وألحق بهما مقدمة في الفصاحة والبلاغة ، ودراسة للمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية ، ولاحظ أن علم المعاني يحتاج إلى من يتأمل فيه ، وإلى الوقوف على الحد والاستدلال أو بعبارة أخرى ، إلى الوقوف على علم المنطق ففتح له مبحثا أحاط فيه بمسائله كما وجد أيضاً أن من يتدرب على علمي المعاني والبيان يحتاج إلى الوقوف ، على علمي العروض والقافية ؛ فأفرد لهما المبحث الأخير في الكتاب وبذلك اشتمل المفتاح على علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والمنطق والعروض والقوافي، ونراه يصور في تقديمه له طريقته في تصنيفه[[4]](#footnote-4)(4) ، فيقول : ( وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعد ما ميزتُ البعض عن البعض التمييز المناسب ، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك ، ومهدت لكل من ذلك أصولا لائقة ، وأوردت حججاً مناسبة ، وقررت ما صادفتُ من أراء السلف ـ قدَّس الله أرواحَهم ـ بقدر ما احتملت من التقرير ، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلَّتْ عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مفنَّنة ما فَتَق بها رَتْق أذن)[[5]](#footnote-5)(5).

وشهرةُ السَّكاكي إنما ذاعت بسبب القسم الثالث من الكتاب الخاص بعلمي المعاني والبيان ولواحقهما من الفصاحة والبلاغة والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية ، فقد أعطى لهذا كلِّه الصيغة النهائية التي عكف عليها العلماء من بعده يتدارسونها ويشرحونها مراراً ؛ إذ استطاع أن ينفذ من خلال الكتابات البلاغية قبله إلى عمل مُلَخصٍ دقيقٍ لما نثره أصحابها من أراء ، وما استطاع أن يضيفه إليها من أفكار وصاغ ذلك كله صياغة مضبوطة محكمة استعان فيها بقدرته المنطقية في التعليل ، وفي التجريد والتحديد ، والتعريف والتقسيم ، والتفريع والتشعيب ، وكان قائدَه في ذلك كتابا عبد القاهر ( دلائل الإعجاز ) ، و ( أسرار البلاغة ) ، و( الكشاف ) للزمخشري ، و ( نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ) للرازي ـ رحم الله الجميع ـ ، الذي لخص فيه كتابي الإمام عبد القاهر الدلائل والأسرار ، ومن الحق والإنصاف أن تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرازي ، وكأنما كان عقله أكثر دقة وضبطاً للمسائل في هذا الفن خاصة ، بل لقد كان أكثر تنظيماً وأسدَّ تقسيماً ٍ مع ترتيب المقدمات ، وإحكام المقاييس وصحة البراهين ، وبذلك استقام تلخيصه ، بحيث لا نجد فيه عوجا ولا أمتاً[[6]](#footnote-6)(6) ، وإنما نجد فيه الدقة والقدرة البارعة على التبويب والإحاطة الكاملة بالأقسام والفروع ، غير أن ذلك عنده لم يشفع بتحليلات الشيخ عبد القاهر ، والعلامة الزمخشري ، التي كانت تملأ النفوس ، إعجابا وبهجة وأريحية ، ولو فعل لحاز السبق من أطرافه .

**الشاهد القرآني عند السكاكي :**

الشاهد هو : ذلك النص النثري أو الشعري ، الذي بلغ درجة عالية من الفصاحة والبلاغة ؛ فيُقَدَّم للباحثين لإثبات قضية في شتى مناحي اللغة نحويةً كانت أو صرفية أو بلاغية لإثباتها وتقريرها ، فما وافق الشاهد فصحيح ، وله حكمه في الفصاحة وما خالف الشاهد فخطأ ، وبهذه الشواهد حفظ العلماء الأثبات رسوم اللغة من الخطأ ولزلل ، وجعلتِ الإنسانَ المتأخر يتحدث باللغة كما تحدث بها الأول ، ومن أجل هذا الحرص على الشاهد واحتذائه بنيت أدق القوعد ، فكانت جامعة مانعة .

ولو تأملنا في الشواهد الذي تخيرَّها المتقدمون لإرساء قواعدهم ؛ نجدها لا تتعدى القرآن الكريم والسنة النبوية وكذلك الشعر العربي الفصيح في أوقات الاحتجاج ؛ وإن كانت بعض العلوم تتجوز فتتخير من المنثور والمشعور أجودَه وإن كان خارج عصور الاحتجاج ، وإن كانت تلك الشواهد تؤخذ كمعززات للشواهد القديمة لا مؤسسة ، ومهما يكن من أمر فالشاهد هو تكأة اللغوي والبلاغي فعن طريقه يبصر مواطن الجمال ، ويصنع من خلاله أعذب المقطوعات ، فهو القائد ومن كان له قائد فهو إلى الغاية أقرب .

وليست كل العلوم سواء في التعامل مع الشاهد ، فعلم النحو والصرف يتعامل مع قضايا ثابتة لا تتغير ، بل هي لازمة مابقي الليل والنهار ، بخلاف الشاهد البلاغي والبلاغة عموماً فهي ذوقية فعلى هذا يجب أن تخرج عن التحديد الملزم ، فحيثما حصل الإمتاع فثمة بلاغة، كما أن تبادل المتعة بين الأمم هدف من أهدافها وشواهدها .

والشاهد البلاغي لا ينظر فيه إلى آحاد الكلمات كما عند النحاة والصرفيين ، بل إلى الشاهد كاملاً من أوله إلى آخره وما فيه من أوجه بلاغيَّةٍ وإبداعية ، كما أن النظرة إلى الشاهد البلاغي ينبغي أن تكون متجددة مع كل نظرة إلى الشاهد البلاغي ، ويجب ألا يقف المتأخر عند حدود الأول ، بل عليه أن يؤسس لمعايير أخرى ربما أوحت بها نظرتُه ، وكم ترك الأول للآخر .

والبلاغيون لم يلزموا أنفسهم بما أزم به اللغويون والنحاة أنفسهم من الاستشهاد بعصر دون عصر ، بل كلُّ منثور ومشعور حَرِيٌ بأن ينظر فيه ، ونظراتنا فيه هي من تحدد الجودة أو الرداءة ، وليس العصر والمصر ، وهذا هو الحق ، فوجود صاحب النص في العصر المنتخب لا يعطي شهادة على صحة ما قال ، كما أن خروجه من حدود الزمان والمكان لا يلغيه أو يلغي مقوله ، وهذه نظرة من أهل البلاغة عميقة ، كما أنه تسامح مع النص لاستجلاب عمقه الجمالي الرايق ، كما أن هذا الفضاء الواسع الرحب للشاهد البلاغي على اختلاف توجهاته أبعد الشاهد البلاغي عن الجمود والنمطية الغارقة في أوحال التكرار ، ولعلك لو تتبعت دواوين البلاغة الكبرى لوجدتها تتباين ، فبعضها لا يكرر بعضاً ولا يأخذ منه حذو القذة بالقذة ، بل الشواهد غير الشواهد والاستنباط منها مختلف جداً .

وإنك لو تأملت في الشاهد البلاغي قرآنا وسنة وشعراً ، لوجدتها تمتاز في اختيارها بالجمال والروعة وكثرة الماء والرواء والجزالة والقوة والتجدد والحيوية ، ودراستنا هنا ستجعل من تلك الرؤى حقيقة وستكون متوجهة للشواهد من كتاب الله ، وحسبك بكتاب الله بلاغة وإعجازاً ، بل لم تُسن البلاغة إلا للكشف عن إعجاز القرآن الكريم ، بل القرآن هو مجال البلاغة الأرحب ، وهو ساحةٌ تبارى الأقدمون والمتأخرون فيها لحيازة السبق في الكشف عن إعجاز القرآن ، وقد كان لهم بعض ما أرادوا ؛ لذا نلحظهم يمتحون من معينه فمنهم مقل ومنهم مستكثر ، ولعل على رأس من أولى الشاهدَ البلاغيَّ أولوية كبرى هو أبويعقوب السكاكي ـ رحمه الله ـ ، حيث حشد في المفتاح وفي القسم الثالث منه ما يزيد على خمسمائة آية ، وهذا العدد لا نجد مثله عند عبدالقاهر في كتابيه الدلائل والأسرار ؛ مما يدل على الاحتفال الكبير عند السكاكي بالإعجاز القرآني الكريم ، وهو كذلك يفوق الشعر الذي ضمنه الكتاب، حيث لا تتعدى الشواهد الشعرية في المفتاح مئتين وخمسين بيتاً ، بل إنك عندما تتصفح بعض الأبواب في المفتاح تكاد تمر بك الصفحات تلو الصفحات لا تجد فيها إلا القرآن وآياته[[7]](#footnote-7)(7) ، ورغم هذه الكثافة وذلك الإكثار ظلت تهمة جفاف الأسلوب وطغيان المنطق ، تلاحق السكاكي حتى عصرنا هذا ، ربما كان دافعهم للحكم عليه بذلك ليس لكثرة شواهده ، ولكن لطريقة تعامله معها ، التي تختلف عن طريقة عبدالقاهر ـ رحمه الله ـ يفعل ، وهم في حكمهم هذا لا ينظرون لاختلاف المدارس ولا لبواعث التأليف بين الرجلين ، ولو فعلوا لربما أنصفوا السكاكي ، ورفعوا عنه غائلة اللوم .

وهذا الفرق بين السكاكي ومَنْ تقدَّمه من البلاغيين في كثرة الشواهد القرآنية التي ربما زادت عن الضعف ؛ تعطيك مؤشراً على الجدة التي يمتاز بها السكاكي في شواهده القرآنية ، وهذا يجعلك تدرك أن السكاكي لم يجعل بينه وبين كتاب ربِّه وسيطاً يأخذ من خلاله تلك الشواهد ، ففي موضع الحذف استشهد الشيخ عبدالقاهر باثنتي عشر آية ، واستشهد السكاكي بستة عشرة آية ، وقد وافق السكاكي عبدالقاهر في آيتين وانفرد بأربع عشرة آية[[8]](#footnote-8)(8) ، حتى وإن أخذ السكاكي من قبله فإن أخذه كان آخذاً إيجابياً لم تخفت فيه شخصيته . بل كانت جلية إذ طوع المنهج الأدبي لينساق في الطور التقعيدي الذي أخذ نفسه بتقريره وقد كان .

والسكاكي لمن تتبع منهجه يلحظ أنه يمهد للموضوع بمقدمة يجلي فيها الأغراض والمقتضيات ثم يناقشها مناقشة عقلية ويتبع ذلك بأمثلة من عنده ، ثم يتبعها بسوق الشواهد على ما قال . يقول : ( ومهدت لكل من ذلك أصولاً لائقة ، وأوردت حججا مناسبة )[[9]](#footnote-9)(9) ، والشواهد القرآنية هي المقدمة غالباً ، ثم يلوي بعد ذلك على البقية من شعر وغيره ، وهو لا يكاد يذكر من الآيات إلا محل الشاهد منها ، فعند حديثه عن التقديم وبعض من أسراره أورد آيات عدداً مجتزأة ركز فيها على بغيته منها ، فقد أورد قول الله تعالى  **وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاء** [[10]](#footnote-10)(10) ، وكذلك قوله تعالى : **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ** [[11]](#footnote-11)(11)، وقوله: **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ**[[12]](#footnote-12)(12)، وغير هذه الآيات كثير جداً ، بل جُلُّ شواهده في الكتاب على هذه الشاكلة ، ولا ريب أن اختزال الآية بكلمات منها لا يحقق الغرض الأسمى من الدراسات البلاغية وهو معرفة أوجه الإعجاز وأسرار النظم[[13]](#footnote-13)(13).

والسكاكي وهو يعالج أوجه البلاغة والإعجاز من خلال شواهده من الآيات ، يعقد بعض الموازنات بين بعض الآيات التي بينها اختلاف في النظم ولو كان يسيراً ، ومنها ما كان في نظم الآيتين التي قمت بإيرادهما سلفاً ، حيث يقول : ( ولله در أمر التنزيل ، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال ، ولا ترى منها شيئاً يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف ، إلا عثرت عليه مراعى فيه من ألطف وجوه، وأنا ألقي عليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها ، فيما عسى يظلم عليك من نظائرها إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك ، ومطارح فكرك ، منها أن قال عز من قائل في سورة القصص في قصة موسى : **وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ**  ، فذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه ، وقال في يس في قصة رسل عيسى : **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى المَدِيْنَةِ** ، فقُدِّم لما كان أهم ، يبين ذلك : أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية والرسل أنهم أصروا على تكذيبه ، وانهمكوا في غوايتهم مستشرين على باطلهم ، فكان مظلة أن يلعن السامع على مجرى العادة مجيلاً تلك القرية قائلاً : ما أنكدها تربة! وما أسوأها منبتاً ! ويبقى مجيلاً في فكره أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك ، أم كان هناك قطر دانٍ أو قاص منبت خير ، منتظراً لمساق الحديث ، هل يلم بذكره ؟ فكان لهذا العارض مهماً فكما جاز موضع له صالح ذكر )[[14]](#footnote-14)(14).

ولم يكتف السكاكي في هذا الموضع بهذه المقارنة والموازنة ، بل أورد بعضاً من الآيات منها قوله تعالى : **لَقَدْ وِعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا** [[15]](#footnote-15)(15) ، وعقد الموازنة بينها وبين قوله تعالى : **لَقَدْ وِعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا** [[16]](#footnote-16)(16) ، وكذلك بين قوله تعالى : **أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لمُخْرَجُونَ** [[17]](#footnote-17)(17) ، وقوله : **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً** [[18]](#footnote-18)(18) ومثل هذه الموازنات المبثوثة في المفتاح وتعامل معها المؤلف بالدراسة والتحليل لتوقفك على بديع من النظم عظيم ، كما أنها توقفك على فهم ثاقب ومراس عجيب في الجمع بين المختلفات في نظم واحد وتوجيهها الوجهة الموحية .

والسكاكي إلى جانب هذه الموازنات تلحظ في كتابه الجانب التحليلي للآيات ، حيث يغوص على لطائفها وطرائفها ، وأنت تنظر في ذلك التحليل يتراءى لك وكأنك لأول مرة تقرأ هذه الآية أو تلك ، وتلحظ في ذلك التحليل العمق ، ويمكن أن نقول : إن تحليله يتصف بالسهل الممتنع ، لا يعطيك بعض الفائدة حتى تعطيه اهتمامك وفهمك ، فلعلك تنظر إليه وهو يتحدث عن الالتفات في سورة الفتحة في قوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنٌ [[19]](#footnote-19)(20) ، حيث قال : ( ﻭﻛﻞُّ ﺍﻟﺘﻔﺎﺕ ﻭﺍﺭﺩ ﰲ ﺍﻟﻘﺮﺁﻥ ﻣﱴ ﺻﺮﺕ ﻣﻦ ﺳﺎﻣﻌﻴﻪ ﻋﺮﻓﻚ ﻣﺎ ﻣﻮﻗﻌﻪ ، ﻭﺇﺫﺍ ﺃﺣﺒﺒﺖ ﺃﻥ ﺗﺼﲑ ﻣﻦ ﺳﺎﻣﻌﻴﻪ ﻓﺄﺻﺦ ﰒ ﻟﻴﺘﻞ ﻋﻠﻴﻚ ﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﱃ : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنٌ ﻓﻠﻌﻠﻚ ﳑﻦ ﻳﺸﻬﺪ ﻟﻪ ﺍﻟﻮﺟﺪﺍﻥ ﲝﻴﺚ ﻳﻐﻨﻴﻪ ﻋﻦ ﺷﻬﺎﺩﺓ ﻣﺎ ﺳﻮﺍﻩ ﺃﻥ ﺍﳌﺮﺀ ﺇﺫﺍ ﺃﺧﺬ ﰲ ﺍﺳﺘﺤﻀﺎﺭ ﺟﻨﺎﻳﺎﺕ ﺟﺎﻥٍ ﻣﺘﻨﻘﻼً ﻓﻴﻬﺎ ﻋﻦ ﺍﻹﲨﺎﻝ إلى ﺍﻟﺘﻔﺼﻴﻞ ، ﻭﺟﺪ ﻣﻦ ﻧﻔﺴﻪ ﺗﻔﺎﻭﺗﺎ ﰲ ﺍﳊﺎﻝ ، ﺑﻴﻨﺎ ﻻ ﻳﻜﺎﺩ ﻳﺸﺒﻪ ﺁﺧﺮ ﺣﺎﻟﻪ ﻫﻨﺎﻙ ﺃﻭﳍﺎ ، ﺃﻭ ﻣﺎ ﺗﺮﺍﻙ ﺇﺫﺍ ﻛﻨﺖ ﰲ ﺣﺪﻳﺚ ﻣﻊ ﺇﻧﺴﺎﻥ ، ﻭﻗﺪ ﺣﻀﺮ ﳎﻠﺴﻜﻤﺎ ﻣﻦ ﻟﻪ ﺟﻨﺎﻳﺎﺕ ﰲ ﺣﻘﻚ ﻛﻴﻒ ﺗﺼﻨﻊ ؟ ﲢﻮﻝ ﻋﻦ الجاني ﻭﺟﻬﻚ ، ﻭﺗﺄﺧﺬ ﰲ ﺍﻟﺸﻜﺎﻳﺔ ﻋﻨﻪ إلى ﺻﺎﺣﺒﻚ ﺗﺒثه ﺍﻟﺸﻜﻮﻯ ﻣﻌﺪﺩﺍً ﺟﻨﺎﻳﺎﺗﻪ ﻭﺍﺣﺪﺓ ﻓﻮﺍﺣﺪﺓ ، ﻭﺃﻧﺖ ﻓﻴﻤﺎ ﺑﲔ ﺫﻟﻚ ﻭﺍﺟﺪ ﻣﺰﺍﺟﻚ ﳛﻤﻰ ﻋﻠﻰ ﺗﺰﺍﻳﺪ ، ﳛﺮﻙ ﺣﺎﻟﺔ ﻟﻚ ﻏﻀﺒﻴﺔ ﺗﺪﻋﻮﻙ ﻋﻠﻰ ﺃﻥ ﺗﻮﺍﺛﺐ ﺫﻟﻚ ﺍﳉاني ﻭﺗﺸﺎﻓﻬﻪ ﺑﻜﻞ ﺳﻮﺀ ، ﻭﺃﻧﺖ ﻻ ﲡﻴﺐ إلى ﺃﻥ ﺗﻐﻠﺐ ﻓﺘﻘﻄﻊ ﺍﳊﺪﻳﺚ ﻣﻊ ﺍﻟﺼﺎﺣﺐ ﻭﻣﺒﺎﺛﺘﻚ ﺇﻳﺎﻩ ﻭﺗﺮﺟﻊ إلى ﺍلجاني ﻣﺸﺎﻓﻬﺎ ﻟﻪ ﺑﺎﷲ ، ﻗﻞ ﱄ : ﻫﻞ ﻋﺎﻣﻞ ﺃﺣﺪ ﻣﺜﻞ ﻫﺬﻩ ﺍﳌﻌﺎﻣﻠﺔ ؟ ﻫﻞ ﻳﺘﺼﻮﺭ ﻣﻌﺎﻣﻠﺔ ، ﺃﺳﻮﺃ ﳑﺎ ﻓﻌﻠﺖ ؟ ﺃﻣﺎ ﻛﺎﻥ ﻟﻚ ﺣﻴﺎﺀ ﳝﻨﻌﻚ؟ ﺃﻣﺎ ﻛﺎﻧﺖ ﻟﻚ ﻣﺮﻭﺀﺓ ﺗﺮﺩﻋﻚ ﻋﻦ ﻫﺬﺍ ؟ ﻭﺇﺫﺍ ﻛﺎﻥ ﺍﳊﺎﺿﺮ لمجلسكما ﺫﺍ ﻧﻌﻢ ﻋﻠﻴﻚ ﻛﺜﲑﺓ ، ﻓﺈﺫﺍ ﺃﺧﺬﺕ ﰲ ﺗﻌﺪﻳﺪ ﻧﻌﻤﻪ ﻋﻨﺪ ﺻﺎﺣﺒﻚ ﻣﺴﺘﺤﻀﺮﺍً ﻟﺘﻔﺎﺻﻴﻠﻬﺎ، ﺃﺣﺴﺴﺖ ﻣﻦ ﻧﻔﺴﻚ ﲝﺎﻟﺔ ﻛﺄنها ﺗﻄﺎﻟﺒﻚ ﺑﺎﻹﻗﺒﺎﻝ ﻋﻠﻰ ﻣﻨﻌﻤﻚ ، ﻭﺗﺰﻳﻦ ﻟﻚ ﺫﻟﻚ ، ﻭﻻ ﺗﺰﺍﻝ ﺗﺘﺰﺍﻳﺪ ﻣﺎ ﺩﻣﺖ ﰲ ﺗﻌﺪﻳﺪ ﻧﻌﻤﻪ ، ﺣﱴ ﲢﻤﻠﻚ ﻣﻦ ﺣﻴﺚ ﻻ ﺗﺪﺭﻱ ﻋﻠﻰ ﺃﻥ ﲡﺪﻙ ﻭﺃﻧﺖ ﻣﻌﻪ ﰲ ﺍﻟﻜﻼﻡ ، تثني ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺗﺪﻋﻮ ﻟﻪ ﻭﺗﻘﻮﻝ : ﺑﺄﻱ ﻟﺴﺎﻥ ﺃﺷﻜﺮ ﺻﻨﺎﺋﻌﻚ ﺍﻟﺮﻭﺍﺋﻊ ؟ ﻭﺑﺄﻳﺔ ﻋﺒﺎﺭﺓ ﺃﺣﺼﺮ ﻋﻮﺍﺭﻓﻚ ﺍﻟﺬﻭﺍﺭﻑ ؟ ﻭﻣﺎ ﺟﺮﻯ ﺫﻟﻚ المجرﻯ ، ﻭﺇﺫﺍ ﻭﻋﻴﺖ ﻣﺎ ﻗﺼﺼﺘﻪ ﻋﻠﻴﻚ ﻭﺗﺄﻣﻠﺖ ﺍﻻﻟﺘﻔﺎﺕ ﰲ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنٌ**  ﺑﻌﺪ ﺗﻼﻭﺗﻚ ﳌﺎ ﻗﺒﻠﻪ ﻣﻦ ﻗﻮﻟﻪ : **الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ** [[20]](#footnote-20)(20) ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻮﺟﻪ ﺍﻟﺬﻱ ﳚﺐ ﻭﻫﻮ : ﺍﻟﺘﺄﻣﻞ ﺍﻟﻘﻠﱯ ، ﻋﻠﻤﺖ ﻣﺎ ﻣﻮﻗﻌﻪ ﻭﻛﻴﻒ ﺃﺻﺎﺏ ﺍﶈﺰ ، ﻭﻃﺒﻖ ﻣﻔﺼﻞ ﺍﻟﺒﻼﻏﺔ ؛ ﻟﻜﻮﻧﻪ ﻣﻨﺒﻬﺎ ﻋﻠﻰ ﺃﻥ ﺍﻟﻌﺒﺪ ﺍﳌﻨﻌﻢ ﻋﻠﻴﻪ ﺑﺘﻠﻚ ﺍﻟﻨﻌﻢ ﺍﻟﻌﻈﺎﻡ ﺍﻟﻔﺎﺋﺘﺔ ﻟﻠﺤﺼﺮ ، ﺇﺫﺍ ﻗﺪﺭ ﺃﻧﻪ ﻣﺎﺛﻞ ﺑﲔ ﻳﺪﻱ ﻣﻮﻻﻩ ، ﻣﻦ ﺣﻘﻪ ﺇﺫﺍ ﺃﺧﺬ ﰲ ﺍﻟﻘﺮﺍﺀﺓ ﺃﻥ ﺗﻜﻮﻥ ﻗﺮﺍﺀﺗﻪ ﻋﻠﻰ ﻭﺟﻪ ﳚﺪ ﻣﻌﻬﺎ ﻣﻦ ﻧﻔﺴﻪ ﺷﺒﻪ ﳏﺮﻙ ﻋﻠﻰ ﺍﻹﻗﺒﺎﻝ ﻋﻠﻰ ﻣﻦ ﳛﻤﺪ ، ﺻﺎﺋﺮ ﰲ ﺃﺛﻨﺎﺀ ﺍﻟﻘﺮﺍﺀﺓ إلى ﺣﺎﻟﺔ ﺷﺒﻴﻬﺔ ﺑﺈﳚﺎﺏ ﺫﻟﻚ ﻋﻨﺪ ﺧﺘﻢ ﺍﻟﺼﻔﺎﺕ ، ﻣﺴﺘﺪﻋﻴﺔ ﺍﻧﻄﺒﺎﻗﻬﺎ ﻋﻠﻰ ﺍﳌﱰﻝ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﻫﻮ ﻋﻠﻴﻪ ، ﻭﺇﻻ ﱂ ﺗﻜﻦ ﻗﺎﺭﺋﺎً ، ﻭﺍﻟﻮﺟﻪ ﻫﻮ ﺇﺫﺍ ﺍﻓﺘﺘﺢ ﺍﻟﺘﺤﻤﻴﺪ ﺃﻥ ﻳﻜﻮﻥ ﺍﻓﺘﺘﺎﺣﻪ ﻋﻦ ﻗﻠﺐ ﺣﺎﺿﺮ ، ﻭﻧﻔﺲ ﺫﺍﻛﺮﺓ ﻳﻌﻘﻞ ﻓﻴﻢ ﻫﻮ ، ﻭﻋﻨﺪ ﻣﻦ ﻫﻮ ، ﻓﺈﺫﺍ ﺍﻧﺘﻘﻞ ﻣﻦ ﺍﻟﺘﺤﻤﻴﺪ إلى ﺍﻟﺼﻔﺎﺕ ﺃﻥ ﻳﻜﻮﻥ ﺍﻧﺘﻘﺎﻟﻪ ﳏﺬﻭﺍً ﺑﻪ ﺣﺬﻭ ﺍﻻﻓﺘﺘﺎﺡ ، ﻓﺈﻧﻪ ﻣﱴ ﺍﻓﺘﺘﺢ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻮﺟﻪ ﺍﻟﺬﻱ ﻋﺮﻓﺖ ﳎﺮﻳﺎ ﻋﻠﻰ ﻟﺴﺎﻧﻪ **الحَمْدُ للهِ** ﺍﳊﻤﺪ ﷲ ﺃﻓﻼ ﳚﺪ ﳏﺮﻛﺎ ﻟﻺﻗﺒﺎﻝ ﻋﻠﻰ ﻣﻦ ﳛﻤﺪ ﻣﻦ ﻣﻌﺒﻮﺩ ﻋﻈﻴﻢ ﺍﻟﺸﺄﻥ ؟ ﺣﻘﻴﻖ ﺑﺎﻟﺜﻨﺎﺀ ﻭﺍﻟﺸﻜﺮ ؟ ﻣﺴﺘﺤﻖ ﻟﻠﻌﺒﺎﺩﺓ ؟ ﰒ ﺇﺫﺍ ﺍﻧﺘﻘﻞ ﻋﻠﻰ ﳓﻮ ﺍﻻﻓﺘﺘﺎﺡ إلى ﻗﻮﻟﻪ : **...رَبِّ العَالَمِينَ ...** ﻭاﺻﻔﺎ ﻟﻪ ﺑﻜﻮﻧﻪ ﺭﺑﺎ ﻣﺎﻟﻜﺎ ﻟﻠﺨﻠﻖ ، ﻻ ﳜﺮﺝ ﺷﻲﺀ ﻣﻦ ﻣﻠﻜﻮﺗﻪ ﻭﺭﺑﻮﺑﻴﺘﻪ ، أﻓﺘﺮﻯ ﺫﻟﻚ ﺍﶈﺮﻙ ﻻ ﻳﻘﻮﻯ ، ﰒ ﺇﺫﺍ ﻗﺎﻝ ، **الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ**  ﻓﻮﺻﻔﻪ ﲟﺎ ينبئ ﻋﻦ ﻛﻮﻧﻪ ﻣﻨﻌﻤﺎ على ﺍﳋﻠﻖ ﺑﺄﻧﻮﺍﻉ ﺍﻟﻨﻌﻢ : ﺟﻼﺋﻠﻬﺎ ﻭﺩﻗﺎﺋﻘﻬﺎ ، ﻣﺼﻴﺒﺎ ﺇﻳﺎﻫﻢ ﺑﻜﻞ ﻣﻌﺮﻭﻑ ، ﺃﻓﻼ ﺗﺘﻀﺎﻋﻒ ﻗﻮﺓ ﺫﻟﻚ ﺍﶈﺮﻙ ﻋﻨﺪ ﻫﺬﺍ ؟ ﰒ ﺇﺫﺍ ﺁﻝ ﺍﻷﻣﺮ إلى ﺧﺎﲤﺔ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺼﻔﺎﺕ ﻭﻫﻲ  **مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ** ﺍﳌﻨﺎﺩﻳﺔ ﻋﻠﻰ ﻛﻮﻧﻪ ﻣﺎﻟﻜﺎ ﻟﻸﻣﺮ ﻛﻠﻪ ﰲ ﺍﻟﻌﺎﻗﺒﺔ ﻳﻮﻡ ﺍﳊﺸﺮ ﻟﻠﺜﻮﺍﺏ ﻭﺍﻟﻌﻘﺎﺏ ، ﻓﻤﺎ ﻇﻨﻚ ﺑﺬﻟﻚ ﺍﶈﺮﻙ ؟ ﺃﻳﺴﻊ ﺫﻫﻨﻚ ﺃﻥ ﻻ ﻳﺼﲑ ﻋﻠﻰ ﺣﺪ ﻳﻮﺟﺐ ﻋﻠﻴﻚ ﺍﻹﻗﺒﺎﻝ ﻋﻠﻰ ﻣﻮﱃ ﺷﺄﻥ ﻧﻔﺴﻚ ﻣﻌﻪ ﻣﻨﺬ ﺍﻓﺘﺘﺤﺖ ﺍﻟﺘﺤﻤﻴﺪ ﻣﺎ ﺗﺼﻮﺭﺕ ﻓﺘﺴﺘﻄﻴﻊ ﺃﻥ ﻻ ﺗﻘﻮﻝ  **إِيَّاكَ**  ﻳﺎ ﻣﻦ ﻫﺬﻩ ﺻﻔﺎﺗﻪ ﻧﻌﺒﺪ ﻭﻧﺴﺘﻌﲔ ﻻ ﻏﲑﻙ ﻓﻼ ﻳﻨﻄﺒﻖ ﻋﻠﻰ ﺍﳌﱰﻝ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﻫﻮ ﻋﻠﻴﻪ )[[21]](#footnote-21)(22) .

وجميع نظرات السكاكي في الشواهد المدرجة في كتابه ـ كما أسلفت ـ تنصب في البحث عن وجوه الإعجاز القرآني ، وما قاله لا يكاد يخرج عما قاله الأقدمون ، وهو في فحواه لا يخرج عن أربعة وجوه ، وهي :

أن القرآن قد بلغ الغاية القصوى في الكلام العربي الفصيح ، فلا ينبغي لكلام أن يبلغ شأوه أو قريباً منه ، لا في النظم ، ولا في دقة المعاني ، ولا تلك اللطائف في لفظه ومعناه .

والوجه الثاني : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام ، لما لم يكن معهوداً في أساليب العرب ، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

والوجه الثالث : ما أودع فيه من المعاني الحكيمة ، والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية ، مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عفي عصر نزول القرآن ، وفي عصور بعده متفاوتة .

والوجه الرابع : هو ما انطوى عليه من الإخبار عن المغيبات ، مما يجل على أنه منزل من علام الغيوب[[22]](#footnote-22)(22).

الخاتمة

بعد هذا التطواف والحديث عن السكاكي وشواهد أجدني ملزماً بتسطير أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الشاهد القرآني في كتاب السكاكي ( مفتاح العلوم ) ، وسأركز هنا على الأهم منها .

أولاً : القرآن الكريم لا زال على اختلاف المدارس البلاغية هو المعين الأول في استلهام الفصاحة والبلاغة ، ولا عجب فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ؛ لذا من أخذ به هدي إلى صراط مستقيم ، لا في التشريع فقد ، بل حتى في احتذاء نظمه .

ثانياً : الشاهد القرآني عندما يطرح فإنه يحقق الإجماع ، فلا يمكن أن تختلف عليه أو على فصاحته العقول ؛ لذا جعله في مقدم الشواهد وبناء القواعد عليه هو فعل الحكيم ، وهذا مايفعله السكاكي في كتابه مفتاح العلوم .

ثالثاً : استقلالية السكاكي في التوجه لكتاب الله ، وهذا ملاحظ في كثرة شواهده مقارنة بعبدالقاهر ، حيث تبلغ شواهده الخمسمائة شاهد بينما عبدالقاهر لا تتجاوز الثلاثمائة شاهد ، وفي ذلك دلالة على قوة استنباطاته .

رابعاً : عظم منزلة القرآن في نفس السكاكي لذا نراه يقدمه ويكثر منه في كتابه ، ويغلبه على الشعر ، وهذا خلاف ماعليه أهل اللغة وأهل البلاغة على وجه الخصوص .

خامساً : استخدم السكاكي التحليل لتجلية بعض أوجه الإعجاز في بعض الآيات ، ولو أكثر منه وجعله شاملاً لأثرى البلاغة العربية ولخدم الكتاب العزيز ، لكن ذلك لم يكن .

سادساً : شواهد السكاكي القرآنية ظلت تدور في فلك البلاغيين كل يأخذ منها ويمتح ، وهناك من تفاعل معها تحليلاً ، فهي ملهمة الملخصين والشارحين ، ومن كان بسبب ونسب للبلاغة .

سابعاً : بنى من خلال الشواهد القرآنية رأياً في الإعجاز ، وقد أشرت إليه في هذا البحث ، وهو لم يشر له صراحة ، لكن مفهوم كلامه يفصح عنه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله .

فهرس المراجع

بغية الوعاة ، السيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1965 م

الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، لابن أبي الوفاء القرشي ، تحقيق : د . عبدالفتاح الحلو ، الرياض ، 1985 م.

شذرات الذهب ، لابن العماد ، القاهرة ، 1350 هـ .

الفوائد البهية في تراجم الحنفية ، محمد عبدالحي اللكنوي ، دار المعرفة ، بيروت ، 1324 هـ

المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني ، د . أحمد جمال العمري ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1410 هـ .

مفتاح العلوم ، لأبي يعقوب السكاكي ، تحقيق : نعيم زرزور ، دار الكتب الوطنية ، بيروت ، 1403 هـ .

معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، تحقيق : د . إحسان عباس ، دار الغرب ، بيروت ، 1993م.

فهرس الموضوعات

المقدمة 2

الحديث عن السكاكي وكتابه 4

الشاهد القرآني عند السكاكي 8

الخاتمة 16

فهرس المراجع 18

فهرس الموضوعات 19

1. (1) معجم الأدباء : 6 / 2846 ؛ الجواهر المضيئة : 2 / 245 ؛ بغية الوعاة : 2 / 364 ؛ شذرات الذهب : 5 / 5 / 122 ؛ الفوائد البهية : 231 . [↑](#footnote-ref-1)
2. (2) معجم الأدباء : 6 / 2846 [↑](#footnote-ref-2)
3. (3) الفوائد البهية : 231 [↑](#footnote-ref-3)
4. (4) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز : 326 . [↑](#footnote-ref-4)
5. (5) مفتاح العلوم : 6 . [↑](#footnote-ref-5)
6. (6) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : 327 [↑](#footnote-ref-6)
7. (7) انظر : المفتاح :231 ـ 246 ، 308 ـ 317 . [↑](#footnote-ref-7)
8. (8) انظر : المفتاح : 229 . [↑](#footnote-ref-8)
9. (9) المفتاح : 6 . [↑](#footnote-ref-9)
10. (10)الأنعام : 100 . [↑](#footnote-ref-10)
11. (11) القصص : 20 . [↑](#footnote-ref-11)
12. (12) يس : 20 . [↑](#footnote-ref-12)
13. (13)انظر المفتاح : 237 ، 238 ، 239 . [↑](#footnote-ref-13)
14. (14) مفتاح العلوم : 238 . [↑](#footnote-ref-14)
15. (15) المؤمنون : 83 . [↑](#footnote-ref-15)
16. (16) النمل : 68 . [↑](#footnote-ref-16)
17. (17) النمل : 67 . [↑](#footnote-ref-17)
18. (18)الصافات : 16 . [↑](#footnote-ref-18)
19. (19) الفاتحة : 4 . [↑](#footnote-ref-19)
20. (20) الفاتحة : 1 ، 3 . [↑](#footnote-ref-20)
21. (21) المفتاح : 201 ـ 203 . وللزيادة انظر : المفتاح : 108 ، 218 ، 232 . [↑](#footnote-ref-21)
22. (22) انظر : المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : 329 ـ 331 . [↑](#footnote-ref-22)